



المنهج التاريخي في النقد المسرحي عند

عبد المالك مرتاض في كتابه "فنون النثر الأدبي في الجزائر"

The historical approach to theatrical criticism when
Abdelmalek Murtad in his book "The Art of Literary
Prose in Algeria"

رابع زريقي

جامعة ابن خلدون – تيارت – zergui.rabah09@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/12/09

تاريخ الاستلام: 2019/11/30

الملخص:

يعتبر عبد المالك مرتاض من النقاد الجزائريين الذين خاضوا غمار النقد المسرحي في الجزائر، واعتمدوا المناهج السياقية في بداية تجاربهم النقدية للمسرح، وقد كان للمنهج التاريخي حظا وافرا في دراساته ضمن كتابه "فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931 – 1954" حيث وظف المسرحيات التي درسها في التعريف بالواقع السياسي والاجتماعي للجزائر في تلك الفترة، وأبرز أهم الدوافع التي أدت إلى كتابتها.

الكلمات الدالة:

مناهج سياقية، نقد مسرحي، منهج تاريخي، أحداث تاريخية.

Abstract:

Abdelmalek Murtaad is considered one of the Algerian critics who fought in the theater criticism in Algeria, and adopted the contextual approaches at the beginning of their critical experiences of the theater, and the historical curriculum had a great deal of luck in his studies in his book "The Art of Literary Prose in Algeria 1931-1954" where he employed plays that He studied the political and social reality of Algeria at that time, and highlighted the most important motives that led to its writing.

Key words:

Contextual approaches, theatrical criticism, historical approach, historical events.

تمهيد:

تعتبر دراسات عبد المالك مرتاض من بين أهم الدراسات النقدية الجزائرية في الأدب العربي عموماً، وفي الأدب المسرحي خاصة، حيث وظّف معظم المناهج النقدية في دراساته، وأما النماذج التي نحن بصدد دراستها فقد كان توظيفه للمنهج التاريخي فيها جلياً، محاولاً مقارنة عدد من القضايا التي تتعلق بمدى تأثير العمل الأدبي وكاتبه بالوسط المعيشي والتاريخي لحقبة ما قبل الثورة التحريرية، ومدى تأثير العمل الأدبي أو محاولة تأثيره بالمقابل في ذلك الوسط، وقد وقف هذا البحث على رصد أهم محطات المنهج التاريخي توظيفاً في دراساته لبعض المسرحيات ضمن كتابه "فنون النثر الأدبي"، وكيف كانت إسقاطاته على هذه المسرحيات، وكيف ربط الناقد بين هذه المسرحيات وسياقاتها التي كتبت فيها، وقد ركزت هذه الدراسة على مسرحيات بعينها باعتبارها الحيز الذي تدور داخله الأحداث التاريخية من جهة، ويدور حوله المنهج النقدي التاريخي من جهة أخرى، مستقصياً عن هذه الأحداث، وربطها بظروف كتابتها، وذلك بسبر أغوار المسرحيات ومقاربتها بالتاريخ العام للجزائر في تلك الفترة.

1. المنهج التاريخي في النقد المسرحي الجزائري:

يُعتبر المنهج التاريخي من المناهج السبّاقة استعمالاً في دراسة النصوص الأدبية نظراً لطبيعة النصوص عموماً في علاقتها بالتاريخ وإسقاطاتها على فترات زمنية معينة من حيث الوقائع بحيث يركز على العلاقة المتينة بين العمل

الأدبي والزمن الذي ولد فيه، والبيئة التي يتشكل فيها، فضلا عن العرق الذي ينتمي إليه مبدع العمل الأدبي" (الرقب، 2007) ولذلك فإنّ الباحث أو الناقد التاريخي لا "يقف عند حدود وصف الوقائع الأدبية في علاقاتها المتبادلة، إنّما ينبغي عليه دراسة تلك الوقائع من خلال حركتها وتغيّرها والنظر إليها على أنّها في كل متماسك الأجزاء، بمعنى أن لا يصف الآثار الأدبية وتغيّر مصادرها دون ربطها بهذه المصادر ودون ربط هذه المصادر بالإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام" (حجازي، 2004)، والمنهج التاريخي يتفحص جوهر المسرحية حيث المواقف مأخوذة بالضرورة من وقائع وقعت في مجرى التاريخ وتحولاته، وكان لها بالغ الأثر في حياة الكاتب وغيره من أفراد مجتمعه، "والناقد التاريخي لابد أن يكون على دراية بالتاريخ لأنّه إذا جهلنا التاريخ فسوف نشوّه معنى النصوص، والمنهج التاريخي لا يصحّ الأخطاء المحتملة لقراءة عفوية فحسب، وهي خدمة تجريبية قليلة الأهمية، وإنّما أيضا يردّ إلى كل عمل الحياة واللون اللذين كان عليهما عند مولده" (إندرسون، 1991) وذلك انطلاقا من فهم التداخل الوظيفي بين التاريخ والمسرح "فهو منهج يتخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره أو التاريخ الأدبي لأمة ما، ومجموع الآراء التي قيلت في أديب ما أو في فن من الفنون" (وغليسي، مناهج النقد الأدبي، 2007)، وقد أدى ظهور المسرح في الجزائر إلى ميلاد النقد المسرحي، حيث اتخذ الكثير من النقاد النصّ المسرحي كغيره من النصوص الأدبية مطيّة للكشف عن الدوافع التي أدّت إلى كتابة هذه المسرحيات فهذا عبد المالك مرتاض يبرّر لذلك بقوله: "فجاء الكتّاب الجزائريون ليثبتوا للاستعمار الفرنسي ثمّ للشعب الجزائري أنّ المحنة التي أصابت الجزائر ما كان لها لتؤدّي بها إلى التّنكّر لشخصيتها والانسلاخ عنها، ولذلك نشطوا في تأليف الكتب التاريخية، ولم يرضوا بها حتّى أخرجوا مسرحيات تاريخية تُعيد للشعب الجزائري بعض ملامح الماضي المهمّل وتذكّره ببعض البطولات التي اندثرت أو كادت" (مرتاض، 1983)، وإنك لتجد الناقد التاريخي يجمع بين زمن كتابة الأثر والظروف الاجتماعية

في تلك الفترة بحيث "يتداخل النقد التاريخي تداخلا كثيرا مع النقد الاجتماعي (حتى إن كثيرا من النقاد يتحدثون عنهما بوصفهما منهجا واحدا)" (وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، 2002)، باعتبار أن الأحداث مرتبطة بزمان ومكان معينين يفرضان على الناقد التطرق إلى ذكر ما يجري في إطارهما فيتشكل العمل النقدي في إطار ثلاثي التكوين (زمن، مكان، حدث)، وهذا هو أساس كل دراسة تاريخية أو اجتماعية.

2. المنهج التاريخي في دراسات عبد المالك مرتاض:

تعتبر دراسة عبد المالك مرتاض للمسرح رائدة في الجزائر من خلال كتابه "فنون النثر الأدبي في الجزائر" إلا أنه أضاف إلى المنهج التاريخي الذي يظهر جليا في دراسته لبعض المسرحيات نوعا من الانطباع أو الذوق الخاص الذي تميّز به في الكثير من دراساته النقدية، كما أن دراساته في هذا المؤلف اتسمت بنوع من السطحية تطرق من خلالها إلى ذكر المسرحيات التي ألفت في حقبة زمنية من تاريخ الجزائر، وهي فترة ما قبل الثورة، معرجا على ذكر أسباب ظهور الفن المسرحي وربطه بالجانبين التاريخي والاجتماعي، إضافة إلى الجانبين الديني والأدبي، مظهرا انبهاره بكثرة المسرحيات التي ألفت قبل الثورة التحريرية قائلا: "وليس معنى ذلك أننا ذكرنا جميع ما كتب ومُثّل خلال هذه الفترة، فذلك لا يزعمه إلا مكابر لأنّ ذلك لا يمكن أن يستوي في بحث واحد على يد باحث واحد نظرا لطبيعة الأدب الجزائري الذي لا يزال كثير منه مطمورا في المكتبات الخاصة" (مرتاض، 1983) كما ركّز على رصد الموضوعات التي عالجها الفن المسرحي بالجزائر ومن خلال ذلك صنّف المسرحيات حسب موضوعاتها وفق أربعة اتجاهات: الاتجاه التاريخي والذي عالجت من خلاله المسرحيات موضوعات تاريخية وأهمّ هذه المسرحيات: "حنّبل" لتوفيق أحمد المدني، و"يوغرطة" لعبد الرحمان ماضوي، و"عنيسة" لأحمد رضا حوحو، و"الخنساء" لمحمد الصالح رمضان، والاتجاه الاجتماعي حيث أشار إلى مسرحيتين اثنتين وهما: "مضار الخمر والحشيش" لمحمد العابد الجيلالي، و"امرأة الأب" لأحمد ذياب القنطري،

والاتجاه الديني حيث عرض مسرحيتين وهما: "المولد النبوي" لعبد الرحمان الجيلالي" والناشئة المهاجرة "لمحمد الصالح رمضان"، والاتجاه الأدبي، تطرّق فيه كذلك إلى مسرحيتين "لأحمد رضا حوحو" وهما: "أدباء المظهر" و"الأستاذ" (مرتاض، 1983) وقد وقع اختيارنا للمسرحيات الأربع الأولى لتوافقها وموضوع هذه الدراسة.

3. دراسة تاريخية لمسرحية "حنبل":

أشار الناقد في بداية تحليله إلى أنّ "المسرحية كُتبت في نهاية سبع وأربعين وتسعمئة وألف" (مرتاض، 1983)، هذه الفترة كانت قبل اندلاع الثورة ببضع سنين، حيث كانت الظروف قاسية على الجزائريين جراء الاستعمار الفرنسي، ثم يستدل على ذلك بقوله: "وقد جاء موضوع المسرحية ملائماً للواقع السياسي الجزائري يومئذ" (مرتاض، 1983)، فاستغل موضوع المسرحية ليؤكد على زمن كتابتها، لقد وصف الناقد أحداث المسرحية باقتضاب فذكر البطل «حنبل» وحره على الرومان، وانتصاراته عليهم إلى أن انهزم في معركة «جاما»، ثم انتقله إلى الشام ومنها إلى آسيا الصغرى، حيث حوَصر من قبل الرومان فسمّم نفسه حتى لا يقع في قبضتهم، ثم ربط هذه الأحداث بالواقع الجزائري آنذاك، وربط البطولات والأمجاد المتوغلة في التاريخ البعيد بنظيراتها في الجزائر أيام الاستعمار وكيف وقف المجاهدون في وجهه مستبسلين حيث يقول: "والمسرحية عبارة عن تمجيدات وتقديسات للروح الوطنية والكفاح، وكأنّ أحمد المدني كان يكتب عن مجاهد جزائري، لا عن مكافح إفريقي من أعماق التاريخ البعيد، كما أنني أتمثله وهو ينظر إلى روما، وكأنها هذا الاستعمار الغربي الجديد الذي اكتسح المغرب العربي ومشرقه، فسلط عليهما من الظلم والهوان، وصب عليهما من العذاب والآلام ما لم تصبه روما على قرطاجنة" (مرتاض، 1983)، حيث وبفضل استقصاءات التاريخ الأدبي والثقافة التاريخية الواسعة، استطاع الناقد أن يُحدّد في الزمن لحظة تكوين العمل الأدبي بدقة" (إندرسون، 1991)، وكان

الأحداث التي يتحدث عنها الكاتب أثارت فيه ما عاشه «حنبل» في مواجهة الرومان، فأراد أن ينقل هذه الإثارة إلى الشعب الجزائري من خلال هذه المسرحية "فقد اصطنع توفيق المدني جملا وعبارات كثيرة تفيد أنه كان يُغري بالثورة ويدعو إليها، ويشرح للشباب الصعوبات والتضحيات التي ستقع لهم وتواجههم حين يعلنون هذه الثورة المنتظرة" (مرتاض، 1983).

لقد وضع الناقد نفسه في موضع الكاتب المؤلف للمسرحية وحاول قراءة كلماته كما كانت في عصرها بعدما فعلت مفعولها في نفسه، فحاول أن يفسرها بحسب الوضع السائد فترة تأليفها حيث يقول: "إن هذه العبارات التي استشهدنا بها من مسرحية "حنبل" تثبت لنا بأن المؤلف لم يكن يريد إحياء حوادث تاريخية قديمة ممعنة في القدم، ولكنه أراد أن يوقظ نفوسا جامدة، وأن يُحيي قلوبا هامدة، وأن يُذكي همما متخوفة تريد الحرية وتستغلي ثمنها" (مرتاض، 1983)، ويضيف مؤكدا على تاريخانية المسرحية قائلا: "إنّ هذا الموضوع الذي اختاره المدني لمسرحيته منتزع من حوادث التاريخ حقا" (مرتاض، 1983)، وبذلك وضع نفسه في وجهة نظر المبدع وعلّل له كتابته تعليلا مثقلا احتوى كل جوانب المسرحية وكأنّه استرجع كل الظروف الأصلية التي أُبدعت فيها، كما يردف مستقيا تعليله من المنهج التاريخي الصرف قائلا: "نستنتج من بعض ما قدمناه أنّ أحمد المدني ألف «حنبل» واستمد حوادثها من التاريخ، واختارها لتلك الفترة الزمنية، لأن الظروف التاريخية التي كان الشعب الجزائري يحياها، كانت توحي بذلك الموضوع المتمثل في البحث عن زعيم سياسي قوي ثائر، يقود الشعب، وينقذ البلاد من العبودية الاستعمارية" (مرتاض، 1983)، وحاول الناقد أن يُسقط الوضع المذكور في قصة «حنبل» على الوضع السائد في فترة كتابة المسرحية، واعتبرها مرآة عاكسة لها، حاول من خلالها الكاتب تمرير رسالته للجمهور حيث يُعلّل لذلك بقوله: "فذلك الخلاف الذي يقع في المسرحية بين زعماء قرطاجنة وأرضهم محتلة فيه إشارة دالة إلى اختلاف الأحزاب السياسية الجزائرية وتطاحناتها في ما بينها من حيث

كان ينبغي لها أن تتّحد لخوض معركة التحرير، فالأحداث تاريخية حقا" (مرتاض، 1983).

حاول الناقد ربط المسرحية بالواقع الاجتماعي والسياسي آنذاك "بأبعاده المتعددة، وتحميله وظيفة تغيير هذا الواقع" (فضل، 2002) حيث يقول: "والأحداث تاريخية حقا، ولكن الكاتب أراد أن يفسرها تفسيرا وطنيا بحثا، وقد وُفق في أن يعرض تلك الحوادث التي تشكل موضوع مسرحيته في بساطة ويسر ويخلصها من الأبعاد الزمنية المجردة، فيجعلها وكأنها حدثت بالأمس، أو هي إنما تحدث اليوم" (مرتاض، 1983).

لقد ساعدت معرفة ظروف كتابة المسرحية الناقد من خلال بحثه التاريخي في أن يحكم عليها، ذلك أن "المنهج التاريخي يساعد في الوصول إلى الرأي النقدي" (إندرسون، 1991)، حيث جعل الكاتب من هذه المسرحيات عملا جديدا تزييا بزي الماضي الذي كان يعيشه حنبعل في زمنه، واتخذ منها الناقد "عاكسا لحركة الحياة والمجتمع وتطوراتها، وممثلا على وجه الخصوص للطاقة الثورية فيها، ولإرادة التغيير، وفقدان الحكم، والضيق بالواقع والتمرد" (فضل، 2002)، الذي أراد الكاتب نقله إلى الشعب من خلال الأدب المسرحي.

4. دراسة تاريخية لمسرحية "يوغرطة":

استهل الناقد دراسته للمسرحية بما يشبه التحري مستقصيا عن زمن كتابتها، معللا لذلك برسالة تلقاها من الكاتب نفسه، حصل من خلالها على الجواب اليقين (حسب قوله)، ومما جاء فيه: "يسرني أن أخبركم أنني أنهيت كتابتها في سنة 1952" (مرتاض، 1983)، ثم استأنف دراسته التاريخية للمسرحية حيث يرى أنّ الكاتب ربط الأحداث التي كان يعيشها الشعب آنذاك بما عاشه الجزائريون إبان الاحتلال الروماني القديم وكيف وقف في وجهه يوغرطة. فالمسرحية "في الواقع كتبت قبل اندلاع الثورة التحريرية، ومع ذلك فإنها لا

تُعتبر غربية عن الأحداث السياسية التي عاشتها بلادنا طوال تاريخها كله، بما في ذلك تاريخ الثورة التحريرية" (مرتاض، 1983).

لقد استعرض الناقد أهم أحداث المسرحية، وأبرزَ وجه الشبه بينها ومسرحية «حنبل»، "وإذن فقد بدا التشابه واضحا جدا في كثير من مواقف المسرحيتين" (مرتاض، 1983)، كما ربط بين مواقف المسرحية وهدف الكاتب ربطا مباشرا بناء على الوضع السائد في تلك الفترة قائلا: "فالحوادث التاريخية لم تُتخذ مادة ميتة، في مسرحية يوغرطة، أيضا لذاتها، أي من أجل إحيائها لغاية تاريخية مجردة، وإنما رمى الكاتب إلى اتخاذها مادة يستمد منها أفكاره الوطنية، ويوقظ همم الناس للتأهب لمعركة التحرير" (مرتاض، 1983)، فقد جعل من هذه المسرحية كذلك مادة تاريخية استخدم أحداثها "نوافذ يطل منها على داخل العمل كمصاييح لإضاءته" (إندرسون، 1991)، انطلاقا من فهم التداخل الوظيفي بين التاريخ والمسرح، حيث يسعى التاريخ إلى احتواء الأحداث، ويسعى المسرح إلى إعادة تشكيلها وبعثها في قالب جديد الظاهر قديم الباطن.

5. دراسة تاريخية لمسرحية "عنيسة":

لقد اختلفت دراسة هذه المسرحية عن سابقتها باعتبار أن الكاتب لم يعتمد في دراسته على أحداث تاريخية حقا، وإنما كان لخياله الدور البارز في كتابة فصولها حيث يقول الناقد: "و«عنيسة» التي عول أحمد رضا حوحو في كتابتها على خياله دون أن يكلف نفسه مشقة قراءة تاريخية عميقة للحوادث الهامة التي عرفتها الأندلس خلال ثمانية قرون من الوجود العربي فيها" (مرتاض، 1983)، بحيث يرى أن الكاتب "لم يُعر التاريخ كبير اهتمام فصور الفترة الزمنية التي كان يعيش فيها عنيسة منحطة مع أنها كانت مزدهرة قوية" (مرتاض، 1983)

لقد أشار الناقد في بداية دراسته لهذه المسرحيات إلى أنها تاريخية، مادتها مستمدة من التاريخ، وأراد أن يعلل في دراسته لهذه الأخيرة على أنها لا ترقى إلى

مستوى المسرحيات التاريخية نظرا لضعف أخبارها قائلا: "ومما يبدو في هذه المسرحية من ضعف تاريخي، ما نلاحظه من عجز المؤلف عن إعطاء اسم للملكة الأعجمية التي ذكر أنها كانت تحكم غرناطة، كما عجز عن وضع اسم لزوجها الملك العجوز الذي لم يكن له من السلطان شيء" (مرتاض، 1983)، وتلا الناقد دراسته للمسرحية بملخص لأهم أحداثها ومواقفها، إلى أن وصل إلى استنتاج أن تلك المسرحيات التي كتبت في تلك الفترة اتخذ أصحابها من أسماء علم ضخمة عناوين لها، مدعما بذلك فكرة أن هذه المسرحيات تاريخية حقا، جعل كتابها من أسماء حقيقية موغلة في التاريخ أبطالا لها.

6. دراسة تاريخية لمسرحية "الخنساء":

بدأ الناقد دراسته للمسرحية بتبيان المكان والزمان الذي ألفت فيه ومثلت وكذلك زمن تمثيلها، ثم مضى إلى ذكر أحداثها مرتبة حسب فصولها الثلاثة إلى أن وصل إلى استنتاج أن "المؤلف رمى إلى خدمة الناشئة وتعليمهم أكثر من خدمة الفن المسرحي في مستواه الأعلى" (مرتاض، 1983)، فاستقى لأحداث مسرحيته من التاريخ الذي ساعد الناقد في حكمه عليها حيث كان "حكما على القيمة الجمالية التي في نواتها الثمرية حكم تاريخي" (إندرسون، 1991)، ثم انتهى إلى أن الكاتب لم يوفق في تصوير مأساة هذه السيدة العربية التي عاشت آخر حياتها تبكي أخويها، والسبب أنه لم يركز على حدث تاريخي بارز "في تلك الفترة المشرقة من حياة الإسلام ليجعلها مندفعاً للناشئة، ومستندا لهم في مستقبلهم الذي كان يبدو غامضا مظلما جدا في الجزائر" (مرتاض، 1983)، هذه العبارة إنما هي استنتاج الناقد من خلال تحليله التاريخي لهذه المسرحية.

خاتمة:

لقد أخذ الناقد موقفه مسبقا من هذه المسرحيات بحيث صنفها ضمن المسرحيات التاريخية، ثم مضى في تعليقه مبررا وجهة نظره، حيث ربطها بأحداث تاريخية حقيقية، مشددا على ضعف تاريخانية المسرحيات التي لا يستمد صاحبها الأحداث من الواقع على غرار مسرحية "عنيسة" وقد وُفق إلى حد كبير في تعليقه، معتمدا على معلومات موثوقة المصدر، لم تخرج عن نطاق التاريخ المرتبط بالأحداث الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي وقبله، فتجده يكرر في كل مرة عبارة "فالأحداث تاريخية حقا"، فلا مناص للمسرحيات التاريخية من أن تحاكي أحداثا واقعية متوغلة في التاريخ، يعرفها الناقد من خلال بحثه التاريخي، وتكون له مرتكزا يتكئ عليه في دراسته، ونوافذ تضيء له طريق التعليل لما يعتقده في النص الأدبي قيد الدراسة، كما أنه اعتمد في تعليقه لخارج النص على النص ذاته، واعتمد في تعليقه للنص على سياقه والظروف التي كانت تحيط بالكاتب زمن كتابته، فتوصل بذلك إلى تبريرين هامين: أولهما: السياق الذي كتبت فيه هذه المسرحيات ودوافع كتابتها، وثانيهما: التعريف بالظروف السياسية والاجتماعية التي كان يعيشها المجتمع الجزائري في فترة كتابة هذه المسرحيات، أي قبيل اندلاع الثورة التحريرية، وذلك من خلال تحليله لأحداث تلك المسرحيات ومواقفها، وبذلك فقد أسس عبد المالك مرتاض للدراسة التاريخية للمسرح من خلال تركيزه على بعض النقاط التي ينبغي أن يستند عليها كل دارس تاريخي أهمها: إلمام الناقد بالأحداث التاريخية المتعلقة بالنص قيد الدراسة.. أن تكون الأحداث واقعية لا من نسج خيال المؤلف، حتى تتماشى والدراسة التاريخية من جهة، وتثبت تاريخانية النص المدروس من جهة ثانية.

المصادر والمراجع:

1. أحمد الرقب. (2007). نقد النقد يوسف بكار ناقدا. عمان الأردن: دار الياروزي للنشر والتوزيع.
2. انريك أمبرت إندرسون. (1991). مناهج النقد الأدبي. القاهرة: مكتبة الآداب.
3. سمير حجازي. (2004). مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر. سوريا: دار التوفيق للطباعة والنشر والتوزيع.
4. صلاح فضل. (2002). مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته (الإصدار 1). مصر: ميريت للنشر والتوزيع.
5. عبد المالك مرتاض. (1983). فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931 - 1954. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
6. يوسف وغليسي. (2002). النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية. الجزائر: رابطة الإبداع الثقافية.
7. يوسف وغليسي. (2007). مناهج النقد الأدبي (الإصدار 1). الجزائر: جسر للنشر والتوزيع.